مقدمة

هذا الكتاب الذى نضعه بين يديك قد مرّ بمراحل مختلفة من حيث نموه وتغيره وتطوره . ولم يمس تغيره وتطوره فى جميع مراحله ناحية جوهرية فيه ؛ وانما كان ذلك فى درجات الوضوح والتحديد . وهذا اتجاه حميد ؛ وان كان البعض يرى فيه مأخذا علينا . ويأخذ علينا أيضا بعض المشتغلين بعلم النفس فى مصر أن الآراء التى يقدمها هذا الكتاب لا تخضع لأحدث التغيرات التى تمت أخيرا فى أمريكا ، ولكننا نرى أن علم النفس فى أمريكا قد أهمل الكثير مما وصل اليه علم النفس فى أوروبا ، فأغفل فروضه وتطوره التاريخى ، واعتمد على جمع الحقائق من جديد وعلى اجراء التجارب وعمل الاحصاءات . ثم ان علماء النفس فى أمريكا لم يحاولوا بعد ذلك أن يبحثوا هذه البيانات المتعددة المختلفة بحثا يتيسر معه الوصول منها الى قواعد عامة . وفى الولايات المتحدة أكثر من ستة آلاف عضو فى الجمعية الأمريكية لعلم النفس . وهم جماعة يعملون فى دولة مترامية الأطراف ، قد اختلفت مشاربهم ، وتنافرت اتجاهاتهم ؛ حتى انك لتجد فى الجامعة الواحدة اتجاهات مختلفة فى الميدان الواحد . فاذا علمنا كل هذا لم يعد يهمنا أن نساير أمريكا أولا نساير ها ، لأن من فى أمريكا لا يساير بعضهم بعضا .

ولقد تهيأ لنا — مع كل هذا — أن نكون على اتصال بما يحدث وما يستحدث فى أمريكا ؛ عن طريق المطالعة ، وعن طريق زيارتنا للولايات المتحدة وكندا فى عامى « ١٩٥٢ » و « ١٩٥٤ » رجاء الاتصال الشخصى المباشر بمختلف علماء النفس . وفوق ذلك قد اشتركنا اشتراكا ايجابيا فعليا فى المؤتمر السنوى لعلماء النفس الأمريكيين بمدينة « واشنجتن » عام «١٩٥٢» . كما اشتركنا اشتراكا ايجابيا فعليا فى المؤتمر الدولى الرابع عشر

لعلم النفس بـ « مونتريال » عام « ١٩٥٤ » وفى المؤتمر الدولى الخامس للصحة النفسية بمدينة « تورنتو » عام « ١٩٥٤ » . وقد جعلنا كل هذا على اتصال شخصى مباشر باتجاهات علم النفس فى أمريكا .

ونحن لا نعتبر أن نظرية ما فى علم النفس نهائية بحال من الأحوال . فكل نظرية تكون صحيحة فى ضوء البيانات التى جمعت وأخذت فى الاعتبار . ولكن الذى يحزننا أن بعض الناس يعتقدون أن كل حديث صحيح وأن كل قديم باطل ، مهما كان الحديث متعددا متنافرا ، ومهما كان القديم قابلا للتطور . ونحن نرى أن نظرية من النظريات لا تكون صحيحة على اطلاقها ، ولا تكون باطلة على اطلاقها ، وأنه يحسن بنا أن نحترم الحقائق والنظريات أكثر مما نحترم الأشخاص الذين تصدر عنهم هذه الحقائق وتلك النظريات .

ويمكننا أن نذكر على سبيل المثال أن كتاب « ستوت » — وهو من الكتب التى أهملت فى العهد الحديث — قد حوى كثيرا مما يكشف فى هذه الأيام ؛ فيما يتصل بنظريات « الجشتالت » وبالعمليات العقلية المختلفة ، وبنمو الأفكار وتطورها ، وبعلاقة اللغة بالفكر ، وغير ذلك . ولست أقصد بذلك أن أدعو للأخذ بما قدمه لنا «ستوت» أو « مكدوجل » أو «سبيرمان» ولكننى أقول : ان من الخير أن نسترشد بهم فى تصميم تجاربنا وتعديل أفكارنا .

ومن أعجب ما رأيت ذلك الاتجاه الحديث الذى اتجه اليه « كارل روجرز » ؛ فهذا الاتجاه — وان كان قد بدأ بدون مقدمات أو فروض — قد وصل الى فكرة أن النفس تقف على ما يجرى بها من خبرات ومشاعر ، وهو يحدثنا كذلك عن الخبرة أو الشعور وتعقده ومرونته وسيلانه واطلاعه على نفسه ؛ مما لا يختلف فى جوهره عما اتجه اليه علم النفس عند « ستوت » أو « وليم جيمس » . وقد ظهر أخيرا كتاب فى تاريخ علم النفس لعالم أمريكى معروف ، هو « روبك Roback » يشيد فيه بفضل « مكدوجل » ويعترف له ببقاء أثره فى علم النفس . فلنحاول ألا نقع فى الخطأ الذى يرمى الى تسفيه آراء هؤلاء واحترام كل جديد احتراما

مطلقا بلا قيد ولا شرط . فنحن نريد ألا نعبد الجديد على اطلاقه والا نكفر بالقديم على اطلاقه . وليكن لنا الى بعض القديم بصيص من ايمان . ولنا الى الحديث نظرة فاحصة وحكم معلق ؛ حتى يصمد لاختبارات الزمن ، فتثبت قيمته . ومن الخير لنا أن نستوحى ملاحظات القدماء واستنتاجاتهم ؛ فهى على الأقل تثير التفكير وتعين على رسم المشكلات ، كما أن من الخطأ أيضا ألا ننتفع بالحديث ، فهو يعيننا على رسم الطرق والوسائل التى نتبعها فى البحث .

ولهذا نعرض لآراء « ستوت » و « مكدوجل » على أنها آراؤهم ؛ لا على أنها آراء نهائية . ويتبين من ثنايا كتابتنا ما وصلنا اليه من اتجاه به ايمان ببعض بما وصل اليه السابقون ، وايمان ببعض ما وصل اليه المحدثون. ونحن لا ننتظر أن يكون علم النفس علما ينتهى الى نظريات جامدة ، أو قواعد ثابتة ؛ وانما ننتظر منه أن يكون علما حيا متطورا سريع التطور سريع النمو .

وهذا الكتاب الذى نقدمه لك محاولة من المحاولات لم تعتمد اعتمادا كليا على اتجاه بعينه ، فكثير منه يتسم بالطابع الشخصى . فيه عرض لأساليب علم النفس ؛ ولهذه ميدان واسع غير محدود . وفيه عرض لبعض المبادىء الأساسية كما نراها . ثم فيه عرض لتحليل الخبرة الشخصية أو ما يسمى بالشعور . وفيه كذلك عرض للدوافع الفطرية والمكتسبة بأنواعها المختلفة ؛ على أننا لم نستنفد كل ما قيل فى هذا الموضوع ، فهو كثير أوسع من أن يقدم فى هذا الكتاب . وقد عرضنا كذلك لسيكولوجية الجماعات عرضا بسيطا مختصرا بالنسبة لما يعرض الآن فى هذا الموضوع من دراسات واسعة عميقة .

وقد عالج المؤتمر الدولى الرابع عشر لعلم النفس الذى عقد بـ « مونتريال » عام ١٩٥٤ فكرة « الشعور » بطريقة لا تختلف فى روحها عما اتبعناه فى هذا الكتاب . وقد كان عنوان مجموعة الأبحاث التى ألقيت فى هذا الموضوع هو « الشعور : احياؤه وتعديله » . وقد عالج المؤتمر كذلك موضوع السلوك الغريزى بطريقة فيها قبول لفكرة الاستعداد الغريزى .

ولئن اتصف هذا الكتاب بشيء فانما يتصف بأنه نتيجة خبرة طويلة وتفكير متواصل . ولهذا جاء متصلا متسلسلا ، به وحدة ، وله اتجاه ، وفيه تحليل يمكن وصفه بأنه معقول . على أننى لا أمانع فى تلقى النقد على أساس الوقائع التى يمكن اثباتها بالفعل . فأنا لا أوافق من يقول : ان قبيلة « كذا » ليست عندها نزعة للمقاتلة ، وان أهل جزيرة « كذا » ليست عندهم نزعة للملكية ؛ فتحقيق ذلك يحتاج الى سفر ، واقامة طويلة ، ومعرفة بلغة أعضاء القبيلة أو أهل الجزيرة . وهذا مما لا يخضع فى سهولة الى التحقيق العلمى ، وفى موقفنا منه بالتصديق أو بالتكذيب نجد أنفسنا على غير حق ، ولهذا أوثر فى مثل هذه المواقف تعليق الحكم بقولى : « جائز »

على أن هذا الذى يقال عن انعدام المقاتلة وانعدام الملكية اذا عدلت ألفاظه الى ضعف المقاتلة وضعف الملكية ، واذا تذكرنا ما لم ينكره « مكدوجل » وأمثاله من تعرض ما يسمونه « الغرائز » لتأثيرات قوية من البيئة صار الكلام مقبولا الى حد كبير . فالمسألة ليست رفض هذا وقبول ذاك ، أو احترام هذا واحتقار ذاك ، ولكنها تقوم على أخذ الجميع بالاحترام ، ثم اعمال الفكر ، والتجربة ، والبحث ، مع التحرر من التحيز والتعصب . ولنتذكر دائما أن التحيز والتعصب فى حرارة واندفاع ليس من صفات النضج ، ولكنه أقرب الى صفات المراهقين . أما النضج واكتمال النمو ففيه هدوء واتزان وحكمة وتعقل . وفى ضوء هذا أنصح المشتغلين بالعلم أن يسيروا على هذا السنن ، فهو يسير بهم الى التوفيق ، أما التسرع والتحيز والتعصب فانها أمور تنتهى بأصحابها الى الضلال ، وشتان بين هـذا وذاك .

وبعد ، فهذا الكتاب محاولة نرجو أن تمهد لما بعدها من محاولات . وقد بذلنا فيها جهدنا فى الشرح ، والتحليل ، والتدليل ، والتطبيق فى ميدان علم النفس بوجه عام ، وعلم النفس التعليمى بوجه خاص .

معهد التربية فى ٧ من سبتمبر ١٩٥٤ — عبد العزيز القوصى